خصائص الحِجَاج في الخطاب القرآني

أ. بوسلاح فايزة

جامعة عبد الحميد ابن باديس

–مستغانم–

توطئة:

تبحث هذه الدراسة في حجاجية الخطاب القرآني، انطلاقا من خصائصه الأسلوبية والتركيبية وأهم خصائصه السياقية والتواصلية، المنتمية أصلا إلى المجال التداولي المعروف، والتي كثيرا من الدراسات العلمية اليوم أصبحت تولي لمفاهيم الدراسات التداولية الحجاجية، اهتماما كبيرا. ومن هنا جاءت هذه الدراسة كمحاولة أولية لاستجلاء بعض المظاهر الحجاجية للخطاب القرآني، وحتّى المظاهر التداولية التي لها علاقة بموضوع الدراسة.

فإذا كان القرآن الكريم خطابا إلاهيا " كتب بلغة طبيعية وهي اللغة العربية، فهو موّجه إلى كافة البشر، فهو إذن خطاب طبيعي، يحكمه المنطق الذي يحكم الخطابات الطبيعية، فهو بعبارة أخرى يقوم على الحجاج والمنطق الطبيعي والاستدلال غير البرهاني"*.

1. مفاهيم عامة حول الحجاج:

عرفت الدراسات البلاغية في العصر الحديث نهضة قوية، استعادت بها مكانتها في عالم المعرفة، غير أن هذه الدراسات وهي وتستعيد تلك المنزلة قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمباحث الحجاجية والتداولية .

قد اعتمد هذا النجاح على العلاقة اللازمة بين البلاغة ودراسة وسائل الإقناع، في مجتمع يتّجه يوماً بعد يوم نحو علوم الدعاية والتحريض، فسيادة وسائل الإعلام في ثقافتنا تجعل من الخطابة ممارسة إبداعية للإقناع، ومن البلاغة تقنية ملائمة للإقناع أيضاً. وقد أضحى الحِجاج في رحاب هذا التحوّل مطلباً أساسياً في كلّ عمليّة اتّصالية تستدعي التأثير والإقناع. انطلاقاً من الدور البالغ الذي أصبحت نظريّة الحِجاج تلعبه . أو من المفروض أن تلعبه . جعل برلمان) (Perelmanالبلاغة مطابقة لنظريّة الحِجاج؛ فقد حصر الأولى في الأخيرة .

فالحجاج هو الآلية التي يتجسد عبرها الإقناع، حيث أن نقل الخبر وتبادل الآراء والأفكار بين المتكلم والمتلقي، يتضمن القصد والنية في مضمون الرسالة، لإحداث الإقناع بأسلوب المحاجة .

أ . المفهوم اللغوي:

يرى ابن منظور أنّ الحجاج: "من حاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: أي نازعه الحُجَّةَ" . ونجد حاجّ بمعنى خاصم، فيقول ابن عاشور في تفسيره:" حاجّ لا يستعمل غالبا إلا في معنى المخاصمة، وأن الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل، قال تعالى :" **وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ**"[1]، وقال تعالى:" **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ**"[2]،

والآيات في ذلك كثيرة، فمعنى "الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ" أنه خاصمه خصاما باطلا في شأن صفات الله ربّ إبراهيم" . كما جاء مفهوم التحاجُّ عند "الفيروز أبادي" بمعنى التخاصم أيضا.

وأصل الحجاج من: "حَاجَجَهُ يُحَاجَجِهُ مُحَاجَجَةً، إذا ناظره وجادله، ولكن أدغم أحد الجيمين في الآخر لتماثلهما" . أما مادة حج في القاموس الفقهي من: حاجه محاجة وحجاجا، أي: جادله. والمحاججة عند ابن رشد هي تثبيت الشيء بالكلام المقنع أو ما يظن به أنّه مقنع . ويقول الزبيدي: "حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجَاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه، أَي غَلَبْتُه بالحُجَج التي أَدْلَيْتُ بها. ويقول أيضا: "حاجَجْتُه فأَنا مُحاجٌّ وحَجِيجٌ" . ومنه حديث معاوية فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُه بالحُجَّة" . وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غلبه على حُجَّتِه.

وفي الحديث الشريف:" فَحَجَّ آدمُ موسى" أَي غَلَبَه بالحُجَّة، إذ قال آدم لموسى: " أنت موسى الذي آتاك الله التوراة، وفيها علم كل شيء، فوجدت فيها أن الله قد قدّر عليّ المعصية، وقدّر عليّ التوبة منها، وأسقط بذلك اللوم عني، أتلومني أنت، والله لا يلومني" . وإنما صحّت الحجّة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام؛ من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته، وتاب عليه.

وأما الاحتجاج من احْتَجَّ بالشيءِ أي اتخذه حُجَّة . و الاحتجاج سماه الزركشي بـ" إلجام الخصم بالحجة" وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية، تقطع المعاند له فيه .

نستخلص ممّا تقدم أن الحجاج لغة لا يعدو عن ثلاثة معان رئيسة وهي: المنازعة، والغلبة بالحُجَّة، والمخاصمة. كما وجدنا اختلافا جزئيا في استعمال الجذر(ح ج ج)، فمنهم من يستعمل (التحاجّ) كالفيروز أبادي، ومنهم من يقول(التحاجج)، ومنهم من يفضل(المحاجّة أو المحاججة) مثل ابن منظور ونجم الدين الطوفي، ومنهم من يستعمل(الاحتجاج) كالزركشي، وغير ذلك من الاصطلاحات الاشتقاقية، غير أنّه لا يبرأ الجهاز الاصطلاحي المعتمد في الدراسات العربية من داء الخلط وعدم الدقة .

ب . المفهوم الاصطلاحي:

يصعب حصر الحجاج بمفهومه العام وتحديده؛ إذ نجده متواترا في الفلسفة، والمنطق، والبلاغة، وفي الدراسات القانونية، والمقاربات اللسانية والخطابية المعاصرة؛ بل يمكن القول إنه "لا يكاد يخلو منه الخطاب الطبيعي بوجه عام، إلا أن وجوده واستخدامه يبلغان درجتهما القصوى، ويشكلان بنية ذات نظام في خطابات معينة كالمناظرة، والجدل، والمرافعة، والاتهام مثلا " .

ولكن ما يهمنا في هذا المبحث هو دراسة الحجاج من خلال مجاله التداولي، والذي حمل لواءه بيرلمان (Perelman)وتيتكا (Tyteca)في كتابهما "مصنّف في الحجاج-البلاغة الجديدة" . فالحجاج ذو فعالية تداولية؛ لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية وزمانية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، وهو أيضا هدفه إقناعي.

وقبل أن نعرض أهم آراء بيرلمان Perelman وتيتكا Tyteca حول قضية مفهوم الحجاج وتقنياته، لابدّ أن نتحدث عن الدراسات العربية السابقة في هذا المجال.

عند الدارسين العرب:

لقد أنجز العرب مشروعهم البلاغي المتميز، وبذلوا جهودا في مجال قراءاتهم لأعمال أرسطو؛ وبخاصة الشعر والخطابة، وحاولوا الوقوف على الخصائص النوعية لكل منهما، وما بينهما من وشائج وتوافق في كثير من الأحيان، فحدّدوا الشعرية بالتخييل والخطابية بالتصديق.

ومن هذه الجهود ما قدمه ابن وهب وحازم القرطاجني، وننظر في مجمل الإنجاز البلاغي العربي في ضوء الأسئلة البلاغية الحديثة، نقتنع بأن هذا التراث مازال مُحاوراً يثير الدهشة من جانبين: من حيث الشمول والعمق ، ويعني هذا أنه ارتبط سؤال المناسبة المقامية بالتداولية في أجلى صوره، بالبحث عن فعالية علمية إقناعية خطابية من جهة (عند الجاحظ مثلا)، كما ارتبط من جهة أخرى بملائمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الإعجازية(أو ما يمكن أن ندعوه تداولية لسانية في مقابل التداولية المنطقية الإقناعية النصية الجرجاني مثلا)، وارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة كلاسيكية ذوقية تقوم على الصحة والمناسبة(عند ابن سنان مثلا.

فإشكالية الخطاب الإقناعي في عصرنا الراهن لا تفرض العودة إلى الدراسات المعاصرة فقط؛ بل تفرض أولا أن نعيد بناء التراث البلاغي الإنساني، ولأن الغربيين يعيدون بناء تراثهم، فإن من واجب الباحثين العرب إعادة بناء تراثهم أيضا، خاصة وأن هذا التراث يتميز بفاعلية يستمدها من مفهومه للبلاغة والفصاحة معاً، وهو المفهوم الذي يشغل اهتمام بعض الدارسين المعاصرين. أما المتن البلاغي فهو يتألف من أهم المؤلفات البلاغية التي ظهرت في مرحلة تمتد من الجاحظ إلى السكاكي. ومردّ ذلك أنّ الدراسات البلاغية الحديثة تجمع على أن الجاحظ يمثل فترة التأسيس، وتجمع على أن السكاكي يمثل فترة الاكتمال وبلوغ ذروة ليس بعدها إلا التراجع والانكماش، مع استثناء حالات قليلة من مثل صنيع حازم القرطاجني .

أمّا في نظرنا فمرجعية الحجاج تعود إلى كتاب" المنهاج في ترتيب الحجاج" لمؤلّفه أبو الوليد الباجي؛ حين اعتبر هذا العلم من أرفع العلوم قدرا، وأعظمها شأنا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتمييز الحق من الباطل، ولولا تصحيح الوضع في الجدل، لما قامت حجة ولا اتضحت محجّة، ولا عُلم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقي . ومن هنا عُدّ الحجاج علماً من أرفع العلوم شأنا وقدرا.

وقد اشتهر العرب منذ بداية أمرهم، بممارسة فن الجدل وعلم الحجاج. فهذا أبو الوليد الباجي مثلا استمد فن الجدل –في كتابه– من الكتاب والسنة ومناظرة الصحابة، فبيّن غرضه من التأليف مبرّرا ذلك بقوله:" فمن جهة العقل يذكر بأن الله قد نصر متبع الحق، ودحض مبتدع الباطل، فبيّن لذلك الأدلة على ألسنة الرسل، وأظهر الأعلام على أوضح السبل. فمن الطبيعي أن يتدارس أولوا الأبصار والألباب هذه الأدلة، ويتعرّفوا على هذه الأعلام، حتى يتوصلوا إلى نهج الصواب، ويدرؤوا الشبهات" . وعلى هذا الأساس قام بتأليف كتابه في الجدل، الذي اشتمل على عدة أبواب وتفريعات، وضروب للأسئلة حول المدعي والمعترض، إلى جانب أنواع للأجوبة التي تحدد ذلك .

أما في الدراسات المعاصرة فعرف الحجاج عناية كبرى من الباحثين العرب؛ إذ وضعت له الضوابط والتقنيات للسياقات التي تستعمل فيها العملية الحجاجية. فجاءت الجهود على شكل كتب ومقالات متنوعة، والتي مزجت بين الاستفادة من الموروث القديم، وبين استثمار الطروحات المعاصرة. وهذا ما نجده في أعمال" طه عبد الرحمن" التي انبنت

على المزاوجة بين القديم العربي والحديث الغربي، وهذا من خلال كتابه" في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" الذي يبتغي من ورائه إيجاد رابط منطقي لغوي يؤصّل لنظرية تأخذ بقوة المنطق مع سلاسة اللغة. كما عقد بابا في كتابه" اللسان والميزان أو التكوثر العقلي" تحت اسم "الخطاب والحجاج" ، فعرض فيه أنواع الحجج وأصناف الحجاج، وركّز على السلم الحجاجي، إذ أفرد له فصلا خاصا .

وحاول "محمد العمري" تطبيق نظرية الإقناع عند أرسطو. الذي قسم الخطابة إلى ثلاثة عناصر وهي: وسائل الإقناع أو البراهين، الأسلوب أو البناء اللغوي، ترتيب أجزاء القول. على مجموعة نماذج من خطابة القرن الهجري الأول .

ومن ناحية أخرى فقد اعتمدت أغلب الدراسات العربية المعاصرة على ترجمة النظريات الغربية واستثمارها، ويأتي في مقدمة هذه الأعمال كتاب" أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" لمجموعة من الأساتذة تحت إشراف حمادي صمود، إذ جمع عددا من النظريات وهي: "الحجاج عند أرسطو"، "الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج لبيرلمان وزميله تيتكا، و"نظرية الحجاج في اللغة لوصف أعمال ديكرو"، وأخيرا "البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة عند ميير" والأساليب المغالطية في الحجاج.

كما شاركت مجموعة من الباحثين من الوطن العربي بجمع كل ما يتعلق بالمباحث الحجاجية؛ بدءا بتعريفاتها وتفرعاتها، ومدارسها واتجاهاتها، ومرورا بتقاطعاتها وتجاورها مع تخصصات أخرى. فجاء هذا العمل في خمسة مصنفات تحت عنوان "الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة" من إعداد وتقديم الدكتور حافظ إسماعيلي علوي. فأصبح هذا العمل بمثابة مشروعا ناجحا، ومرجعا هاما للمعارف الحجاجية في الآونة الأخيرة.

كما أسهم "أبو بكر العزاوي" في هذا المجال بمؤلفاته منها" اللغة والحجاج" و"الخطاب والحجاج"، بالإضافة إلى عدد من المقالات، ومنها ما جاء تحت عنوان: "سلطة الكلام وقوة الكلمات"؛ إذ ركّز على ما يمنحه المرسل من سلطة في السياق، باعتبار وظيفة الحجاج هي وظيفة اللغة الأولى، معتمدا توظيف السلم الحجاجي في تحليله للخطاب .

ومنها ما قدمه "محمد سالم ولد الأمين" في مقال له بعنوان: "مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة"، إذ عرض لمفهوم البلاغة الحجاجية، وملامح الحجاج، وكيف يمكن تهيئة المتلقي للإقناع، مع مراعاة التفاوت الناتج عن تباين خصائصه، وأثر ذلك على المرسل في صياغة خطابه. وفي نهاية المقال يدعو إلى الاهتمام بدراسة البلاغة العربية.

وكان "حسان الباهي" ممن أسهم بمقالاته وكتبه في درس الحجاج، فعرض للحجاج من وجهة نظر مختلفة، تُعنى ببيان كيفية توظيف المغالطة في الحجاج، في مقال له بعنوان:" تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط"، وقد بين فيه طبيعة القول المغالطي وخصائصه، ومقاصد المخاطبة المغالطية وأساليبها، ومواضع التغليط اللغوية .

وإن دلت هذه الدراسات إلى العودة القوية للتراث العربي، فإنما تدل على سبقنا المعرفي إلى بعض الإشارات والنتائج التي تعد اليوم محور الدرس اللساني والبلاغي الغربي. وليتوصل الدارسون بنتائج مبهرة تعيد لتراثنا البلاغي واللغوي، دوره الاجتماعي والأدبي والفني.

إنّ الخطاب الحجاجي أصبح يتميز بخصائص سياقية وتواصلية، مما تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات الأخرى، كما أن طريقة بنائه، وأسلوب استدلاله، وخضوعه لشروط القول والتلقي، كلها تؤكد ذلك التميز. بالإضافة إلى انتماء الخطاب الحجاجي إلى المجال التداولي الذي يضع من أولياته الإجابة عن مجموعة من الأسئلة أهمها: من يتكلم؟ وإلى من يوجه خطابه؟ ماذا يقصد من كلامه هذا؟ وهذه الأسئلة وغيرها تتطلب الإجابة عنها استحضارا جيدا لمقاصد المتكلم، والأفعال الكلامية بأبعادها السياقية والتداولية وخاصة الحجاجية. فيمكننا أن نوضح أكثر في الخطاطة التالية:

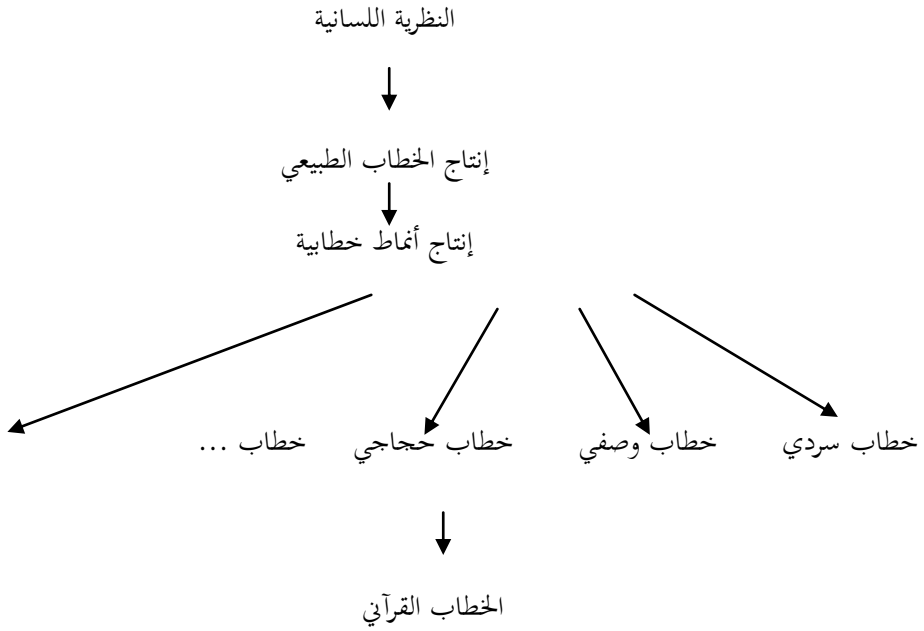

فالخطاب القرآني خطاب حجاجي، وما يصوغ القول بحجاجيته؛ هو أنه خطاب، والخطاب يقتضي الإقناع والتأثير على حدّ قول بنفنيست: " الخطاب في أعم مفاهيمه كل قول يفترض متكلما وسامعا، مع توفر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع"[3].

ومنه نجد أن الخطاب القرآني يتوافر على الآليات الحجاجية، والذي يتميز بمجموعة من الطرائق والعلاقات التي تتفاعل فيما بينها، قصد التغيير والتأثير في المتلقي، بهدف الإقناع والإذعان أحيانا، وإلى الاستمالة والتأثير العاطفي أحيانا أخرى.

أ- خاصية الدينامية النفسية والاستمالة العاطفية:

تأتي فعالية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره، ودينامية مكوناته، فالاقتصاد في الأدلة الحجاجية مثلا يكون له دور مهم في عملية الإقناع؛ إذ المبالغة في سرد الحجج في غير مناسبة يفقد الحجاج فعاليته وقوته، فهذا ما يقتضيه المقام وسياق الحال.

فحقيقة الخطاب الحجاجي ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض؛ بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب هي العلاقة الاستدلالية، وليست العلاقة التخاطبية وحدها، فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مخاطَب من غير أن تكون له وظيفة

"المعترض" على اعتبار طه عبد الرحمن[4]. أي تكمن دينامية الحجاج في وجود طرفي الحجاج وهما: المدعي والمعترض التي تربط بينهما علاقة تخاطبية واستدلالية.

فالحجاج أصبح في الآونة الأخيرة يهتم بإستراتيجية الخطاب الهادف إلى الاستمالة استنادا إلى أنواع الاستدلالات غير الصورية، وذلك قصد إحداث تأثير في المتلقي بالمقومات اللسانية والسياقية التي تجتمع لدى المتكلم، من أجل توجيه كلامه للوصول إلى بعض المقاصد الحجاجية. ومن بين وسائل الاستمالة التي حددها أرسطو هي:

أ. الأخلاق: وهي مجموعة الصفات والخصال المتصلة بالمخاطِب، والمؤدية إلى تجديد الثقة في المتلقي ويعبر عنها بالإيتوس(Ethos).

ب . التأثير في الآخر: وهو ما ينبغي أن يثيره المخاطِب في المتلقي؛ من مشاعر وأحاسيس وانفعالات، تحقق اقتناعه وتسليمه في الأخير بمحتوى الخطاب أو الرسالة المطروحة، ويعبر عنه بالباتوس(Pathos).

ج . الخطاب/ الرسالة: وهي العملية الاستدلالية داخل الخطاب، والتي يلعب فيها الأداء اللغوي دورا حاسما في تحقيق هذه الاستمالة. ويعبر عنها باللوغوس(Logos).

فالمتتبع للحجاج القرآني يجد أنه يتميز بميزة التأثير في القلوب، واستمالة النفوس، دون التغلغل في التدقيقات والجزئيات التي لا يفهمها غالبية الناس. فنجده في تأمل الإنسان لملكوت السماوات والأرض، واستعراضه لهذا الحشد الذي لا يحصى من الأنواع والأجناس، والهيئات والأحوال، والأوضاع والأشكال. فتستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص، وجدان التقوى الذي يدع هذه القلوب تستمال وتتأثر، وتستجيب لمظاهر القدرة والإبداع، ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار والأسماع.

وعليه لابد على المحاجج أن يجعل الطرف الآخر يرتقي معه إلى درجة يتعاون في إنشاء معرفة مشتركة في التواصل، ملتزما بأساليب معينة لتحقيق الإقناع، متخذا الحجة القرآنية منهجا له، "فالقرآن وثيقة رائعة من وثائق الحوار الديني، الذي يتعلق بكل قضايا العقيدة؛ ابتداء من فكرة وجود الله ووحدانيته إلى الأحكام الشرعية"[5].

والمتتبع للحجج في القرآن الكريم يدرك كيف دعا كتاب الله المؤمنين إلى اتباع سلوك طريق الحسنى، وبين لهم نتيجة ذلك من أنه يغدو العدو صديق، والخصم اللدود وليا حميما. قال تعالى لكليمه موسى عليه السلام عندما اصطحب أخاه هارون، فزوّدهما بقوله الحكيم:" **اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**"[6].

هذا هو منهج القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية، المبثوثة حول الإنسان في هذا الكون، والتي يعلم الله سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومة، وإيحاءات مسموعة.

ولم يلجأ المنهج القرآني إلى الأسلوب الجدلي الذي جد فيما بعد عند المتكلمين والفلاسفة، لأن الله عز وجل يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب، ولا يتجاوز منطقة الذهن التي لا تدفع إلى حركة؛ ولا تؤدي إلى بناء الحياة. ولكن الأدلة التي يقدمها هي أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعاً وهذه ميزتها.

ب– خاصية التفاعل والتجاوب:

كلما وقفنا على مفهوم الحجاج تسارعت في أذهاننا دلالته على معنى "التفاعل والتجاوب"؛ سواء كان هذا التفاعل تبادلا للتأثير أو تناقلا للتغيير، أو رابطا وظيفيا أو تجاوبا وجدانيا؛ بل إنّ الحجاج هو أصل في كلّ تفاعل.

وعلى هذا الأساس ينبني الحجاج على مبدأين أساسيين هما: مبدأ الادّعاء ومبدأ الاعتراض، وهما يؤديان إلى اختلاف الرأي في الدعوى، ويدفعان إلى الدخول في ممارسة الدفاع أو الانتصار للدعوى، وهو ما يؤدي إلى تحقيق نوع من التزاوج الظاهر، أو التزاوج المفترض(الذات الاعتبارية) للمخاطب والمتلقي. وقد ينشأ عن هذا التزاوج الظاهر والاعتباري للمتكلم والمخاطب، ازدواج في مختلف العملية الحجاجية، وهي حسب عبد السلام عشير:

أ– ازدواج في القصد: أي حصول الوعي بالقصدين عند كل منهما.

ب– ازدواج التكلم: كما لو كان المستمع هو الذي يتكلم، أو كما لو كان المتكلم يحمل لسان المستمع.

ج– ازدواج الاستماع: كما لو كان المستمع يحمل المتكلم في سمعه.

د– ازدواج السياق: يحتوي سياق إنشاء القول على نصيب من سياق التأويل، كما يحمل سياق التأويل نصيبا من سياق الانشاء[7].

وهكذا تكمن أهمية التفاعل المباشر وغير المباشر بين المتكلم والمستمع في ضرورة الالتزام بطبيعة الأرضية المشتركة بينهما.

ولكي تنجح هذه العملية الحجاجية بين الطرفين، يجب أن تبتعد عن الالتباس لأنّه" ظاهرة لغوية شاذة، والتي يجب علينا تحاشيها، درءً لأيّة عملية تشويش التي يمكن أن تحول بيننا وبين التواصل السليم. ولا تكاد تخلو منه لغة من اللغات، وهو إلى ذلك قد يلحق الدلالة والتداول، كما يلحق الصرف والتركيب والتنغيم" على اعتبار أحمد المتوكل[8].

وعلى الرغم من ضرورة التقيد بالآليات والأدوات والتقنيات التي يعتمدها الحجاج لتشكيل القول، فإن المجال يبقى مفتوحا أمام مهارة المتكلم في فن القول، وإظهار كفاءته الإبداعية، لكي يصل بسهولة إلى إفهام الآخر، وتقريبه من طروحاته حتى يصل إلى ذهنه وعواطفه وعقله، بغية إقناعه والتأثير فيه.

وإنّما ماهية الحجاج تقوم في كونه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة، هذا الالتباس الذي لا نجد له نظيرا في غيره من طرق الاستدلال، ولولا تضمن الحجاج لهذا الالتباس لما تميزت طريقه عن طريق البرهان، هو إذن الفاصل بين الحجاج والبرهان. إذن ليس كل التباس مصدر تشويش–كما كان يظن المناطقة– إذ منه ما يشكل مقوما من مقومات التواصل.

لذلك فالأصل في الالتباس الحجاجي، هو أنّ الحجاج يجتمع فيه اعتباران اثنان لا يجتمعان البتة في البرهان هما: اعتبار الواقع، واعتبار القيمة[9]. فالعبارة في الحجاج إذا اقتصرت على ظاهرها جاءت عادية أو عارضة في القول، بحيث لا يعيرها المتلقي أدنى اهتمام، أما إذا حملت معها إشارات رمزية فإنها ستحرك آليات الفهم والتأويل لدى المخاطَب وتدفعه نحو اعتقاد ما، وهذا ما أسماه طه عبد الرحمن بـ "مغالطات الالتباس"[10].

ومن هنا فإن الخطاب الحجاجي يتميّز عن باقي الخطابات الأخرى، بكونه خطابا مبنيا وموجها وهادفا؛ مبنيا بناء استدلاليا يتمّ فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال، وإلى المنطق والعقل، وموجها مسبقا بظروف تداولية تدعو إليها مواقف قولية أو اجتماعية أو ثقافية أو علمية، وتتطلب الدفاع عن الرأي أو الانتصار لفكرة ما، أو تتطلب نقاشا حجاجيا بهدف تعديل فكرة، أو نقد أطروحة، أو جلب اعتقاد، أو دفع انتقاد.

جـ- خاصية المقاصد والغايات:

إنّ القرآن الكريم هو كتاب موجه نحو جمهور عام، قصد إصلاحهم و هدايتهم أجمعين؛ بمعنى أنه يرمي إلى تغيير وضع قائم أو واقع حادث، فيصلح الكفار بدعوتهم إلى الإيمان، ويصلح المؤمنين بتقويم سلوكهم وتثبيتهم على الهداية، وإرشادهم إلى سبل النجاح وتزكية النفوس. فهو إذن يقدَّم على أنه تغيير لوضع ما، أوحل مشكلة، أو نبذ العنف الذي هو عكس الحجاج.

إنّ الحِجَاج هو البديل عن العنف في نظرية الحجاج إذ يمكن حسب "بيرلمان" و"تيتكا" أن نسعى إلى تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدى الوسيلتين: العنف أو الخطاب الإقناعي [11]، والقرآن الكريم من هذه الناحية هو خطاب حجاجي ينبذ العنف في قضية الإيمان، فجاء في قوله تعالى:" **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"[12]، فتقرير الآية عدم إكراه المرء على الدخول في الإسلام، وإنما يعتنقه بإرادته واختياره، إذ اتضح وانجلى هذا الأمر بالأدلة القاطعة بأن حصلت البينونة بين الرشد والغي بسبب قوة الحجج وتأكيد البراهين على ذلك. وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، "لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار"[13]، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة في قوله تعالى: " **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**[14]؛ أي فمن أراد الهداية وآمن وعمل صالحا نجا من النار، ومن لم يشأ الهداية وبقي على كفره فقد خاب وخسر في الدّارين.

وقوله تعالى أيضا: " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**"[15]. فدليل الآية دعوة الله تعالى لعباده إلى الإيمان به، فلا إيمان إلا بإذنه وقضائه، فلذا لا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم، لأن الله تعالى كتب عليهم العذاب منذ الأزل. فجاء الإختيار بين طريق النجاة وطريق الهلاك، ولهذا جاءت الآية تحمل لفظة الأمر مع التخيير.

ومما تقدم يمكننا أن نميز مجموعة من المقاصد والغايات الأساسية في الحجاج القرآني وأهمها:

. معرفة الله جل وعلا، من خلال التدبر في صفاته سبحانه وتعالى وأفعاله، وعما يستحقه سبحانه من التوحيد بالعبادة، والبراءة من الشرك وأهله، ونحو ذلك.

. الإخبار عن الأنبياء والرسل المرسلين، وعن قصصهم، فهذا خبر عن أهل التوحيد، وما جعل الله تعالى لهم في الدنيا من الأحوال والعاقبة "**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**"[16].

. وأما أن تكون غاية الحجاج الأمر والنهي؛ أمر بأداء الفرائض، ونهي عن ارتكاب المحرمات، وهذا في حقوق التوحيد ومكملاته؛ لأن من وحد الله جل وعلا أطاع الله في أمره وانتهى عن نهيه وتخلص من داعي شهوته وهواه.

. الإخبار عن الأمور الغيبية، وما يحصل بعد الممات من النعيم والعذاب، ومن الجنة والنار، ومن وعد الموحدين و وعيد المشركين.

. إن خاصية الخطاب الحجاجي القرآني ومقصده الأعلى، هي دعوة العباد إلى الله تعالى، فلذلك نجد أبي حامد الغزالي قد حصر قصص القرآن وآياته في ستة أنواع : ثلاثة منها سماها السوابق والأصول المهمة، وثلاثة سماها الروادف والتوابع المتمة؛ أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة: فأولها أحوال السالكين والناكبين، وثانيها محاجة الكفار ومجادلتهم، وثالثها تعريف العمارة ومنازل الطريق[17].

فأما أحوال السالكين فيقصد بها قصص الأنبياء والرسل: كقصة آدم عليه السلام، ونوح عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام وغيرهم، بالإضافة إلى ذكر الملائكة أيضا.

وأما أحوال الجاحدين والناكبين فهي قصص المنكرين والمشركين؛ كقصة النمرود، وفرعون، وعاد، وقوم لوط، وعبدة الأوثان، وإبليس والشياطين وغيرهم. وفائدة هذا القسم هو الترهيب والتنبيه والاعتبار، ويشتمل أيضا على أسرار، ورموز، وإشارات تحتاج إلى التفكر والتمعن الطويل، وفيهما يوجد المغزى والمقصد الأسمى، والآيات الواردة فيهما كثيرة لا يحتاج المقام إلى طلبها وجمعها .

ومنه نستخلص أن خصائص الحجاج القرآني تتميز بمجموعة من الميزات أهمها:

. إن المتتبع ما في كتاب الله العزيز مما حاجّ به عباده في إقامة التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات الرسالة والنبوة، وإثبات المعاد والحشر، وطرق إثبات علمه بكل خفي وظاهر، وعموم قدرته ومشيئته، وتفرده بالملك والتدبير، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وجد الأمر في ذلك على ما ذكرناه من أجلّ وجوه الحجاج، وأسبقها إلى القلوب، وأعظمها ملائمة للعقول، وأبعدها من الشكوك والشبه، في أوجز لفظ وأبينه، وأعذبه، وأحسنه، وأرشقه، وأدله على المراد وذلك فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد وبطلان الشرك وقطع أسبابه كلها[18].

. مخاطبة كافة الناس حسب قدراتهم الفكرية ومداركهم: فجاء الخطاب القرآني مخاطبا للناس أجمعين باختلاف مداركهم، ومستوياتهم، وأشكالهم، وألوانهم، وتعدد نزعاته. ولم تقتصر دعوته على فئة معينة أو زمان معين؛ بل جاء ليصل الجميع وينفعهم، بما فيه من الأدلة، والمناهج العقلية، قال الغزالي:" أدلة القرآن كالماء الذي ينفع به الصبي، والرضيع، والرجل القوي، وسائر الأدلة والأطعمة التي تنفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا"[19].

. إعجازه: كون غاية الحجاج استمالة عقول الآخرين والتأثير فيهم، فهو آلية من آليات البيان لأن" حسن البيان في الكلام على مراتب؛ فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة؛ من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبّل البرَد، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة"[20]، ومن أجل ذلك كان الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم هو من إعجازه. فوجه إعجازه لا يكمن فقط في نظمه، لأن النظم على اعتبار الجرجاني هو موجه إلى جمهور خاص، فوجه إعجازه أن الحجاج موجه إلى جمهور خاص وكوني؛ فالخاص في قوله:"يا أيها الذين آمنوا"، " يا أيها الكافرون"، والجمهور العام في قوله:" يا أيها الإنسان".

. الحجاج وسيلة لتقاسم رأي ما مع الغير، وهي بعيدة عن ممارسات العنف الإقناعي، مثلما تبتعد عن أساليب التضليل وحتى البرهان العملي. إنها تمثل نوعا خاصا يدخل في إطار عائلة الأفعال الإنسانية التي هدفها الإقناع اليقيني.

. الحجاج مسعى من خلاله يباشر شخص أو جماعة في جلب المتلقي إلى التكييف مع وضعية عن طريق الرجوع إلى مقدمات، أو استخدام حجج تستهدف إظهار الصدق. فمفهوم الصدق عند التداوليين يلعب دورا مهمّا في الخطاب، ويلح **غرايس"**

Graice" على أهمية الصدق في المحادثات، والذي يتمثل في قول الحقيقة كما هي موجودة في الواقع، أو كما يتصورها المتكلم انطلاقا من إدراكه للواقع، ويكون الصدق بالإضافة للإثبات، بالاستفهام، ويكون بالأمر، وبالطلب، وبالوعد أيضا[21].

الحجاج إذن هو جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، وهو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها، أو هو عملية كسب تأييد فرد أو مجموعة أفراد لفكرة ما أو رأي معين، وهذا بالاستعانة بأساليب تمثل في غاياتها حججا تدعيمية. ونظرا لكونها موجودة في الخطابات اليومية فالكل يدعو إلى الحجاج. ومن هنا فالحجاج أصل في كلّ تفاعل بلغة طبيعية كما تقرر ذلك في الدراسات اللغوية والخطابية المعاصرة. واللغة التي يحلّ بها الخطاب هي التي تمنحه الصفة الحجاجية، لأنها تمدّه بالعناصر الأولية والقاعدية الحجاجية تبليغا وتدليلا وإقناعا.

إنّ اللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الأغراض الخارجية فقط، وإنمّا هي أساسا حقيقية. وإذا كان الوجود الحقيقي للغة هي وجود حواري، فهذا يؤكد المنطق الذي بنيت عليه لغة القرآن من حيث هي لغة وحجّة بالغة بحسب ما ذهب إليه دارسو الاعجاز القرآني. ثمّ إن النظر الشرعي الاسلامي الذي يتخذ من الخطاب القرآني مرجعه، فعلى الرغم من انبنائه على معقولية، قد تبدو للناظر غير المدقق أنها من جنس عقلانية صورية محضة. فهي خلاف ذلك مدينة بالكثير إلى لغة طبيعية كاللغة العربية، وما تنطوي عليه من خصوصيات وميزات تعبيرية.

الهوامش:

*** أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، دار الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص:27.**

1) Benveniste : Problèmes de linguistique générale, Ed Gallimard, 1966, P :240.

2)سورة الأنعام، الآية :80.

3) سورة آل عمران، الآية :20.

4) اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص:229.

5) محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، قواعده أساليبه معطياته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط**3**، **1985**، ص:**10.**

6) طه، الآيتين:**4443.**

7) ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج، ص:**130.**

8) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، البنية التحتية أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان، الرباط، **1995**، ص: **125.**

9) ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: **230.**

10) المرجع نفسه، ص :**230.**

11) ينظر: قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، الأردن، **2012**، ط**1**، ص:**27.**

12) البقرة، الآية:**256.**

13) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، لبنان، ط**1**، **2000**م، ج**2**، ص:**499.**

14) الكهف، الآية: **29.**

15) يونس، الآية: **99.**

16) فصلت، الآية: **18.**

17) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، جواهر القرآن، تح: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم – بيروت، ط**1** ، **1985**، ص: **23.**

18) ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تح: علي بن محمد الذخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط**3**، **1998**،ج**2**، ص :**460.**

19) أبو حامد الغزالي، إلجام العوام من علم الكلام، تح: محمد المعتصم بالله، دار الكتاب العربي، بيروت، **1985**، ط**1**، ص:**81.**

20) النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص:**106.**

21) ينظر:عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط**1**، **2003**، ص:**106**. كما أنّ مفهوم الصدق يتدخل في تداولية المناسبة، التي عرضها سبربر وولسن، حيث يعدّ هذا المفهوم من أوجه الخلاف مع أعمال غرايس. ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط**1**، **2003**، ص:**92**. وفي مقابل الصدق نجد الكذب، فيرى "سيرل" أنّ المتكلم حينما يدعي الكذب في كلامه يقصد الإخبار، ولكنه قد يضمر في الآن نفسه إدّعاء الإخبار وقصد مغالطة مخاطِبه. ففي هذه الحالة ينتهك شرط النزاهة الذي يقضي بأن يعتقد القائل في صدق ما يخبره أو يثبته." ينظر: المرجع نفسه، ص:**37.**